﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166 - 167]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَها:

عواقب المخالفة للرّسول، والتّأكيد أنّ الأقدار والمصير بيد القدير

لَمّا بَيَّنَ اللّٰهُ سُبحانَهُ وتَعالَى لجَماعةِ المؤمنينَ في الآيةِ السّابقَةِ، أنّ الّذي أَصَابهُمْ يومَ أُحُدٍ مِنَ القَتْلِ والجِراحِ، كانَ بسببِ مُخالفةِ الرُّماةِ لِمَا أَمرهُم بهِ النّبيُّ ﷺ مِنْ لُزُومِ المكانِ الّذي عيَّنَهُ لَهمْ، وعَدَمِ مُفَارقَتِهم لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ أَرادَ أنْ يُبيّنَ لَهمْ في هَذهِ الآيةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أنّ ما وقعَ لهم هو بقَضاءِ اللّٰهِ وقَدَرِهِ، لا مَرَدّ لهُ، ولا بُدَّ من وقوعِه، وهذه حِكمَةٌ عَقَديةٌ جَليلَةٌ، يَعضُدُها حِكْمةٌ أُخْرَى؛ وهي أنَّ ما حدثَ إنْ هو إلّا فَرْزٌ، وتمييزٌ للمُؤمنينَ منَ المُنافقينَ، الَّذين لَمّا أُمِروا بالقتالِ، تَعلَّلُوا بِحُجَجٍ واهيةٍ، وأَسبابٍ كاذِبةٍ تَزيدُهُمْ بُعداً عَنِ اللّٰهِ، وتَنَكُّبًا عن صِراطِهِ المُستَقيم. قيل في معنى كلامهم: لو نعلم أنكم ذاهبون لقتال لذهبنا معكم ولكنكم ذاهبون لهلاك محقَّق فنحن لا نذهب معكم هؤلاء الناس يوم أن قالوا هذه المقالة وتخلّفوا عن جيش المسلمين هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾: (صابَ) السَّهمُ، مِنْ بابِ بَاع، لغةٌ في

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 306.

(أَصابَ)، والمرادُ هنا: فرارُكُم بينَ يَديّ عدوِّكُم، وقَتلِهم لجماعةٍ مِنكُم، وجِراحتِهمْ يومَ (أُحُدٍ)، والصّواب: نقيض الخطأ. والتّصوّب: حدب في حدور، تقول: صوّبتُ الإناء ورأس الخشبة، ونحوه تصويبا.. والعرب تقول للسّائر في فلاة تقطع بالحدس، إذا زاغ عن القصد: أقم صوبك أي قصدك، وفلان مستقيم الصّوب إذا لم يزغ عن قصده يمينًا وشمالًا في مسيره[1].

2) ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أَذِنَ بمعْنَى عَلِمَ، وبابُهُ طَرِبَ[2]؛ أيْ: فبعلم اللّهِ وقَضائِهِ وقَدَرِه، "أي ما أصابكم حين التقيتم أنتم وعدوّكم فبإذني"[3]، أو" يا معشر المؤمنين يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ بأُحد من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة فَبِإِذْنِ اللَّهِ بقضائه وقدره وعلمه"[4].

3) ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: عَلِمَ يَعلَمُ عِلْمًا: عَرَفَه[5]، والمرادُ بالعلم هنا: التّمييزُ والإظهارُ؛ لأنَّ عِلمَ اللّهِ ثابتٌ قَبلَ ذلك، "ولما كان علم الله تعالى محيطًا وشاملًا لكل ما كان ويكون، ولكلّ ماض وحاضر ومستقبل، ولكلّ سرٍّ وعلن، ولكلّ ما في صدور النّاس، وليس من شيء من كونه وخلقه غير معلوم عنده.. فمن واجب المؤمن أن يؤمن بذلك، وأن يعتبر مثل هذا التّعبير أسلوبيًّا بمعنى (ليظهر) و(ليتبيّن) و(لينكشف) ما هو خاف على النّاس من أحداث وأفعال وصور، وهذا هو ما عليه جمهور المؤوّلين، وهو من المألوفات الخطابيّة"[6].

4) ﴿نَافَقُواْ﴾: النِّفاقُ: فِعلُ المُنافِقِ، يُقَالُ: نَافَقَ الرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ وَأَضْمَرَ خِلَافَهَا فِي قلبه، وَالنِّفَاقُ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ اخْتُلِفَ فِي اشْتِقَاقِهِ، فقيل هُوَ مِنْ نَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جُحْرَ الْيَرْبُوعِ لَهُ بَابَانِ: الْقَاصِعَاءُ وَالنَّافِقَاءُ، يهرب من أحدهما إذا هوجم من الآخر، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ طَرِيقَيْنِ، إِظْهَارَ الْإِسْلَامِ وَإِضْمَارَ الْكُفْرِ، وقيل في رأي آخر: الْمُنَافِقُ مِنَ النَّفَقِ، وَهُوَ السِّرْبُ، وبه يتستّر كما يتستّر المنافق بالإسلام، وباطنه الكفران، وقيل إنّ اليربوع يحفر النّافقاء، ويرقّق القشرة من التّراب الّذي فوق الجحر، حتّى إذا التمس خطرًا، دفع التّراب وخرج هاربًا، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: إنّه

(1) الخليل، العين: (صوب).
(2) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (أذن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/200.
(5) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (علم).
(6) دروزة، التّفسير الحديث: 3/19.

مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ يُضْمِرُ الْكُفْرَ فِي بَاطِنِهِ، فَإِذَا فَتَّشْتَ قلبه رَمَى عَنْهُ ذَلِكَ الْكُفْرَ، وادّعى أنّه متمسّكٌ بِالْإِسْلَامِ، وهو أيضًا في بعض المصادر مأخوذ مِنْ نَفَقَ الرَّجُلُ والدَّابّةُ نُفوقًا بمعنى: مَاتَا، وكأنَّ المرادَ هنا: أنَّ المنافقَ قد ماتَ الإيمانُ في قلبِه. والمرادُ بالمنافقينَ هنا: عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ وأَصحابُه، وهُمُ الّذينَ نافَقُوا؛ أيْ: أَظهَرُوا الإيمانَ، وأَبطَنُوا الكُفرَ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما يستفاد من أحداث أُحُد الأليمة، ينفع من قبل ومن بعد الهزيمة

أَخبرَ البيانُ الإلهيُّ صحابةَ رسولِ اللهِ ﷺ، أنَّ ما أصابَهُم يومَ التقَى جَمعُهُمْ مع جَمعِ المشركينَ في غَزوةِ أُحُدٍ، مِنَ القَتلِ والهزيمةِ؛ أنَّه بإذنِه وقَضائِه وقَدَرِه، لا مَرَدَّ لهُ، ولا بُدّ من وُقوعِه؛ وليسَ لهم إلّا التَّسليمُ لهُ، يُغَلِّفُ ذلكَ ويُبطِّنهُ حِكَمٌ جَليلةٌ وفوائدُ جَسيمةٌ؛ ومِن أَعظَمِها تمييزُ المؤمنينَ مِنَ المنافقينَ، أولئكَ المنافقونَ الَّذين قالَ لهمُ المؤمنونَ: تعالَوْا قاتِلوا ذَبّاً عَن دِينِ اللهِ، وحمايةً له، وطلباً لِمَرضاةِ اللهِ، أوِ ادْفَعوا عَن مَحارِمِكمْ وبَلدكمْ، إنْ لم تَكُنْ لكُمْ نيَّةٌ صَالحةٌ؛ فَأَبَوْا ذلكَ واعتَذَروا أَعذارًا واهيةً كاذبة؛ حيثُ قالُوا: لو نَعلمُ أنّكمْ يَصيرُ بينَكُم وبَينَهم قتالٌ؛ لاتَّبعناكُمْ، وقَد عَلِمُوا يَقينًا أنّ المشركينَ قدْ بَذَلواْ أموالَهمْ وجَنَّدُوا أعدادَهُم وعُدَدَهم قاصدينَ قِتالَ المؤمنينَ في بَلدِهم، يَسبِقُهم حِقدُهم وغَيظُهم على المؤمنينَ، بما أَصابُوا مِنهُم يَومَ (بَدْرٍ). في تلكَ الحالِ الّتي تَركَ فيها المنافقونَ الخُروجَ مع المؤمنينَ للقتالِ، مُظهرينَ بكلامِهمْ وأَفعالِهم خِلافَ ما يُبطِنونَ في قُلوبِهمْ وسَرائِرِهم؛ كانُوا أقربَ لِلكُفرِ؛ الَّذي انْطوَتْ صُدُورُهم عليهِ مِنَ الإيمانِ الَّذي يَتجَمَّلونَ به كَذِبًا وزورًا، والّذي يَعلَمُه اللهُ، وَلا يَعلمُه غَيرُه سُبحانَهُ وتَعالَى. ووَهِمَ أُولئكَ المنافقونَ أنَّ التَّخلُّفَ عنِ الجِهادِ يَقِي الإنسانَ مِنَ القَتلِ والموتِ؛ فوَقَعُوا في شَرِّ التَّكذيبِ بقَضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه، فجاءَ الرَّدُّ الإلهيُّ حَاسِمًا، قلْ يا مُحَمّدُ ﷺ لهم:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/422.

ادْفَعُوا عنْ أَنفُسِكُمُ المَوْتَ الّذي فَرَرْتُم مِنهُ، إنْ كُنتُم صَادِقِينَ في ادِّعائِكُم، ولَن تَستَطيعُوا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾:

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ لِـقَـضَـاءِ اللـهِ تَعَالَى الْكَوْنِيِّ

الواوُ في قوله: ﴿وَمَآ﴾ عاطفةٌ، فقد عَطفتْ قولَه سبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ على قولِه في الآية السَّابقة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وهو كلامٌ واردٌ على معنى التَّسليم؛ أيْ: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقَدَرِ اللّهِ تعالَى، فالواجبُ التّسليمُ[2].

ويحتَملُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ كلامًا مستأنفًا؛ سيقَ تتمَّةً لقصَّةِ غزوةِ أُحُدٍ[3].

والأوَّلُ أظهَرُ، ولا يُشكِلُ عليه أنَّ فيه عطفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ المنعَ من ذلك - على ما هو مشهورٌ - لا يصحُّ، فإنَّ القرآنَ طافحٌ بعطفِ الخبر على الإنشاءِ وعكسِه[4]، والذي حسَّنَ العطفَ اشتراكُ الجُمْلَتَيْن في المُسْنَدِ - وهُوَ الإصابَةُ - والْمُسْنَدِ إِلَيْهِ - وهو الضَّمير الرَّاجع إلى المُخَاطَبين -.

دِلَالَةُ ﴿وَمَآ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَصَائِبِ مُجَدِّدٌ لِلْأَحْزَانِ

(ما) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ اسم موصولٌ مُضَمَّنٌ معنَى الشَّرطِ، والمعنَى: وأمّا الذي أصابكُم فمتوقِّفٌ على إذنِ اللّه تعالى؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ معناهُ: بيانُ سَبَبِه وحِكْمتِه؛ ولذلك قُرِنَ الخَبرُ بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الّتي دَخَلتْ في جَوابِ المَوصولِ؛ لِكونِهِ أُشرِبَ معنى الشَّرطِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/374، والسَّعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص: 117.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانُه: 2/102 - 103.
(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 29/210.

والاسمُ الموصولُ دالٌّ على العموم، ولذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بهِ في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾؛ لدلالَتِهِ على جميعِ أفرَادِ ما أصابَهم من غيرِ تصريحٍ بهذه الأفرادِ؛ لئلَّا يُجدِّدَ أَحْزَانَهمْ، فيكُون جامعًا بين إظهارِ الحقِّ في إثباتِ القدَرِ وإخفاءِ تفاصيلِ مُصابِهِمْ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

إِرْشَادُ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ

قال اللهُ سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾، ولم يقلْ: وهي - أي: المصيبةُ - بإذنِ اللهِ، فهو إظهارٌ في موضعِ الإضْمَارِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّهويلُ، وزيادةُ التَّقريرِ ببيانِ زمانِ المصيبةِ بقولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أيْ: جمعُكم وجمع المشركين، وفي الإظهارِ أيضًا: إعلانٌ بذِكْرِ المُصيبةِ، وأنَّها بإذْنِ اللهِ تعالَى، والمقامُ مَقامُ إظهارِ الحقيقةِ[1]، والاسم الظَّاهِرُ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه.

وفي توجيهِ الخِطابِ لجماعةِ المُؤمنين بقوله: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ إرشادٌ لهم إلى طريقِ الحقِّ، فيما سَأَلُوا عنْه، وبيانٌ لبعضِ ما فيه مِنَ الحِكَمِ والمصالِحِ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

كُلُّ مَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ حَاصِلٌ بِإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّةِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ احتراسٌ؛ وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه قبلُ: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ قد يُوهِمُ استقلالَهُم في وقوعِ الحادثةِ، أو أنَّ بعضَ من ترسَخَ قدمُهُ في الإيمانيَّاتِ يتوهَّمُ أن من الأفعال ما هو خارجٌ عن الإرادةِ الكونيَّةِ الإلهيَّةِ، فدُفِعَ هذا التَّوهُّمُ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾:

شِدَّةُ بَلَاءِ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ أُحُدٍ

عُدِلَ عنِ التَّعبير بـ: (ومَا أصَابَكُم في يومِ الْتَقَى الجَمْعَان) إلى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، بإسقاط حرف الجرِّ؛ للإشعارِ بأنَّ الحرفَ استغرقَتْ ذلك اليومَ كُلَّهُ[1]، فاجتمعت عليهم شدَّةُ المصائبِ، وطولُ الابتلاء بالحربِ باستيعَابِ وقوعِهَا اليومَ كُلَّهُ.

واللَّامُ في ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾ للعهد العلميِّ الخارجيِّ، والمرادُ بِهِمَا: جمعُ الْمُسْلِمِينَ وجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ الذين اجْتَمَعُوا في أُحُدٍ لِلْقِتَال.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ دُونَ (يَوْمَ أُحُدٍ):

الْإِيمَانُ بَاعِثٌ عَلَى قُوَّةِ الرَّجَاءِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

جاءَ التَّعبير عن غزوةِ أحدٍ بقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (يوم أُحُدٍ)، وفي التَّعبير بالْتِقَاء الجَمْعَين: إشعارٌ بقوَّة التَّجمُّعِ في الفريقَيْن؛ وذلك دالٌّ على أنَّ كلًّا منهما عازمٌ على القتالِ، راغبٌ في النَّصرِ رغبةً شديدةً، فهزيمةُ المشركين في بَدْرٍ جمعَتْهُم في أُحُدٍ وجعلَتْ لهم عزيمةً قويَّةً على الانتقام، وإيمانُ المؤمنينَ قوَّى أملَهُم في اللهِ تعالى بنَصْرِهم على أعدائِهم أو استشْهَادِهم في سبيلِهِ.

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى قِسْمَانِ عِلْمُ رُؤْيَةٍ وَظُهُورٍ وَمُشَاهَدَةٍ، وَعِلْمٌ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ

الواوُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَت ما دخلَتْ عليهِ عَلَى قولِهِ تَعالَى قبلُ: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وهو مِن بابِ عَطْفِ المسَبَّبِ على السَّبب.

والمُرادُ بالعِلمِ هُنا التَّمييزُ والإظهارُ بَيْنَ النّاس[2]، أو أنَّ المرادَ علمُهُ سُبحانَهُ ذلكَ علمًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وإلَّا فإنَّ أصلَ علمِهِ تعالى بِهِمْ أَزَلِيٌّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/118.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/167.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص: 24.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ فِعْلِ الْعِلْمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾:

اخْتِلَافُ دِلَالَةِ الْفِعْلِ بِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِهِ

كُرِّر الفعل (يَعْلَم) مِن قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ لِنُكْتَتَيْنِ[1]:

إحداهُمَا: تَمييزُ المُؤمنينَ، وإظهارُ شَرفِهم ومَكانتِهم، وتَنْزيهُهم عنِ الانْتظامِ في سِلْكِ المنافقينَ.

والأُخْرَى: الإيذانُ باخْتلافِ حالِ العلمِ بحَسَبِ التَّعلُّقِ بالفَريقَيْنِ؛ فإنّه مُتعلِّقٌ بالمؤمنينَ على جهةِ وعدِهم وَإثابَتِهم وجزائِهمُ الجزاءَ الحسنَ، وتعلُّقُهُ بالمنافقينَ على جِهَة وعيدِهم وتهديدِهم وعقابِهم العقابَ الأليمَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالِاسْمِ وَعَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ بِالْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِأَدْنَى شَيْءٍ مِنَ النِّفَاقِ

استُعملَت صيغةُ اسم الفاعل في لفظ المؤمنين، وصيغة الفعل الماضي في صلةِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾؛ وذلك لأنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ مُنبئةٌ عنِ الثُّبوتِ وَاسْتمرارِ الوصفِ ودَيمُومَتِه، مع تمكُّنِ اسمِ الفاعل مِن الدّلالةِ على تمكُّنِ الصِّفةِ مِن صاحبها حتّى باتَتْ اسْمًا له، بخِلافِ صيغةِ الفعلِ ﴿نَافَقُواْ﴾؛ فدالَّةٌ على الحُدوثِ؛ فناتجُ المعنَى: وما أَصابَكمْ يَومَئِذٍ؛ فهو كائنٌ لِتَمييزِ الثَّابتينَ على الإيمانِ، والّذينَ أَظْهَروا النّفاقَ[2].

وفي التَّعبيرِ عَنِ المؤمنِين باسْمِ الفاعلِ وعَنِ الكَافِرين بالفعْلِ إيماءٌ إلى أنَّ وعدَ اللّهِ تعالى بالجزاءِ الحسنِ إنَّما هو لِمَنْ ثبَتَ لَهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594 - 595.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.

وصفُ الإيمانِ ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ الوَعِيدَ بالعقابِ لمن اتَّصفَ بأدنَى شيءٍ مِن النِّفاقِ[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّــةُ الْــقُــرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، وقال في سورة: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: 11]، وسرُّ المغايرةِ بينهما: أنَّ آية آل عمران سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهرِ التَّعبير بـ (المنافقين) هنا؛ ليُشَاكِل قوله قبل: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلَّا أنَّ السِّياقَ لَمَّا تعلَّق بما منَّ اللهُ تعالى به على المؤمنين بكشفِ جميع مَن تلبَّسَ بنفاقٍ؛ ناسبَهُ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾.

وأمَّا آية العنكبوت؛ فصُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر التَّعبير بـ (الذين نافقوا) ليُشاكِلَ قولَهُ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إلَّا أنَّه لَمَّا سُبقَ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: 10]، وأفادَ ذلك الرُّسوخَ في النِّفاقَ؛ كان المناسب التَّعبير بالوصف فقال سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: 11][2].

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أَثَــرُ دِلَالَاتِ الْــحُــرُوفِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أن تكُونَ عاطفةً، فقد عطفَتْ مدخولَهَا على جملة الصِّلَةِ ﴿نَافَقُواْ﴾، أي: (الذين قيل لهم..).

ويجُوزُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُه سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/442.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.

﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كَلامًا مُبتَدَأً[1]، ويكونُ في هذا اسْتِطْرَادٌ؛ إذْ أوردَ قِصَّة مِن قِصَصِهم تناسبُ هذا المَقَامَ[2].

إلَّا السِّباقَ واللِّحاقَ فيما قَبْلَ قولِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ وما بعدَه؛ يُرجّحُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ معطوفًا على ﴿نَافَقُواْ﴾ داخلًا مَعَهُ في حَيِّز الصِّلةِ، مُبيِّنًا لِلْمُرادِ من النِّفاقِ، وأنَّهُ نِفَاقٌ خَاصٌّ أظْهَرُوهُ في ذلكَ المَوقفِ.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

امْتِلَاءُ الْقُلُوبِ نِفَاقًا مَانِعٌ مِنَ الِانْقِيَادِ لِلْخَيْرِ وَلَوْ كَثُرَ دُعَاتُهُ

بُنِيَ الفعل (قِيلَ) من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للإيماءِ إلى كثرةِ مَن قالَ لهم ذلكَ؛ فقالَ لهم النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ، وأهلُهم وعشيرتُهم المؤمنُونَ، إلَّا أنَّهم امتنَعُوا - مَعَ كَثْرَة القائلين -؛ لامتلاءِ قُلوبِهم نفاقًا[3].

بَلَاغَةُ تَرْكِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْجِهَادِ إِقَامَةُ شَرْعِ اللهِ تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا

الأَصلُ في قِتالِ المؤمنينَ لِعدُوِّهم: أنَّهُ جِهادٌ في سَبيلِ اللّه، والقيامِ بشرعِ اللّهِ قَولًا وسُلوكًا في البلادِ وبَينَ العِبادِ، وهذا هو الأَساسُ في دَعوةِ المؤمنينَ لِغيرِهم في القتالِ مَعَهم حتّى لوْ كانُوا مُنافقينَ؛ ولهذا قالَ اللّه عنهُم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو الخيارُ الأوّلُ الّذي نَطقَ بِهِ أَهلُ الحقِّ وهُمُ المؤمِنونَ، وإنْ لم يَرضَ بِهِ أَهلُ النّفاقِ؛ فَليكُن قِتالُهمْ لِدفعِ القَتلِ والجِراحِ عَنْ أهلِهم وحَريمِهم وبَلَدِهم، أو تكثيرِ سَوادِ المسلمين؛ فَيرَى العدوُّ كَثْرتَهم؛ فَيَتَسلَّلُ الوَهْنُ والخَوْفُ إلى قلبِهِ فيتراجَعُ، أو تَنكسِرُ شَوكَتُه فَينهزِمُ[4].

(1) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/335.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1496.
(4) قال ابنُ عطيَّةَ في المحرّر الوجيز: 3/413: " ولا مَحالةَ أنّ المرابِطَ مُدافِعٌ، والمُكْثِر للسَّوادِ مُدافِعٌ ".

وتُرِكَ العطفُ بيْنَ فعلِ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ وفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾؛ لأنَّه أرادَ أنْ يَجعلَ كلَّ واحدةٍ منَ الجُملتَيْن مَقصودةً بنَفسِها، أو أنَّه أرادَ أن يكونَ قولُه: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ بدلًا من ﴿تَعَالَوْاْ﴾، فالمقصودُ بهما واحدٌ وهو الْقِتَالُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ توطئةً وتمهيدًا للقِتَالِ، وترغيبًا فيه[1]، وفي اقترانِ الفعلينِ على هذَا النّسَقِ إيماءٌ إلى أنَّ العلوّ مقدِّمةُ القتالِ، والقتالَ غايةُ العلوِّ.

دِلَالَةُ ﴿أَوِ﴾ وَبَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾:

جاءتْ (أوْ) في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾ لِتُفيدَ التَّخييرَ، حيثُ قَسَمَ الأمرَ عليهِمْ بَينَ أنْ يُقاتلوا للآخرةِ، كَما يُقاتِلُ المؤمنونَ، أو أنْ يُقاتلوا دَفْعًا عن أنفُسِهمْ وأهليهِم وأموالِهم[2].

شَـــأْنُ أَهْـــلِ الْإِيمَانِ التَّجَرُّدُ لِمَطْلُوبَاتِ الْآخِرَةِ

وفي تقديمِ القِتَالِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى على الْقِتَالِ دَفْعًا: تَرَقٍّ مِنَ الأعلَى إِلَى الأدْنَى؛ إِذْ مَطْلُوباتُ الآخرةِ لا تُدَانيها مطلُوبَات الدُّنيا.

وفي قَوْلِه: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾ تَعْريضٌ بالمنافقينَ؛ إِذْ مِن شأنِ المؤمنِين الصَّادِقين أَن يتجرَّدوا للآخرةِ، فلمَّا ذُكِرَ الدَّفعُ أبانَ عَن تحريضٍ خاصٍّ بِمَنْ لا ينظرُ للآخرةِ نَظرَ المُترقِّبِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصل قولُ اللّهِ تعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بينَهُمَا من شبْهِ كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك أنَّ قوله سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾، أورثَ سؤالًا في أذهانِ المتلقِّين للخطابِ، كأنَّه قيل: فَماذا صَنَعوا حينَ خُيِّروا بَينَ الخَصْلَتَينِ المذكورَتَين؟ فجَاء الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾[3].

أَثَـرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

(1) العكبري، التبيان: 1/156 - 157، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/477 - 478.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بـ (لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾:

عَادَةُ أَهْلِ النِّفَاقِ تَثْبِيطُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَعَالِي الْأُمُورِ

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (لَوْ) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَكُمْ﴾؛ لإفادةِ امْتناعِ قتالِ المنافقينَ مَعَ المسلمينَ؛ لامْتناعِ ما توقَّعُوه زَعْمًا من عدمِ حصولِ القتالِ، وجاءتِ (اللّامُ) في جوابِ الشَّرطِ في قولِهم: ﴿لَّاتَّبَعْنَكُمْ﴾؛ لإيهامِ استعدادِهم لِلْقِتَالِ مع المؤمنينَ في حالِ تيقُّنِهم وقوعَهُ، إلَّا أنَّ تعبيرَهُمْ بالاتِّباعِ دون القتالِ - فلم يقولوا: (لو نعلم قتالًا لَقَاتَلْنَا معكُم) - دليلٌ على كمالِ تَثْبِيطِهِم عَنِ القِتَالِ، وهُو مِن جُمْلَةِ لَحْنِ القَوْلِ الذي تُعْرَفُ بِهِ حَقِيقَتُهم.

وقدْ عَبَّرَ النَّظمُ عن نَفيِ القُدْرةِ على القِتالِ بنَفيِ العِلمِ به؛ لِمَا أنَّ القُدرةَ على الأَفعالِ الاختياريَّةِ مُسْتلزِمةٌ لِلعِلمِ بِها.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ ضَمِيرَ غَيْبَةٍ لَا ضَمِيرَ خِطَابٍ:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ

وردَ المسندُ إليه ﴿هُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ ضميرَ غَيْبَةٍ دُونَ ضميرِ الْخِطَابِ؛ لنكتَتَين:

إحداهُمَا: مراعاةُ السِّياقِ؛ فإنَّ اللّه تعالَى قالَ قَبلُ: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَكُمْ﴾؛ و﴿قَالُواْ﴾ جارٍ عَلَى أسلوبِ الْغَيْبَةِ.

الأُخْرَى: الاسْتِهَانةُ بهم وبنفاقِهم وكَذِبِهم، فَهُم أقلُّ شَأنًا مِنْ أنْ يَتوجَّهَ إليهمُ الخطابُ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قِتَالًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾:

تَظَاهُرُ الْمُنَافِقِينَ بِاعْتِمَادِهِمْ عَلَى الْأَعْذَارِ

نُكِّر ﴿قِتَالًا﴾ من قول اللّه تعَالى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَكُمْ﴾ لإفادَةِ التَّعميمِ؛ لكونِ النَّكرةِ واقعةً في سياقِ الشَّرْطِ، والمعنى: لَوْ نَعلمُ ما يَصِحُّ أنْ يُسمَّى قِتالًا - أيَّ: قِتالٍ كانَ - لاتَّبعناكُمْ، ولكنَّ الذي أنتُمْ بِصدَدِهِ ليسَ بقتالٍ أَصْلًا، وإنّما هو إلقاءُ النَّفسِ في التَّهلُكةِ[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/595.

تَعْيِينُ مُتَعَلَّقِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي ﴿لِلْكُفْرِ﴾ وَ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾:

فَضْحُ الْمُنَافِقِينَ بِحَقِيقَةِ كُفْرِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فِي أَعْذَارِهِمْ وَاعْتِذَارِهِمْ

في قولِه تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ نظمٌ جَزْلٌ، فالضَّميرُ ﴿هُمْ﴾ مبتدأٌ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبرُهُ، واللّامُ في ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وكذلكَ القولُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾، والأصلُ عدمُ جوازِ تعلُّقِ حَرْفَين مُتَّحِدَين لَفظاً ومعنًى بعاملٍ واحدٍ، بلا عَطْفٍ أو بَدَليَّةٍ؛ وذلكَ إنّما هو فيما عَدا أَفعل التّفضيلِ؛ لاتِّحادِ حَيْثيّةِ عَمَلِها، وأمّا أَفعَلُ التّفضيلِ، فحيثُ دَلّ على أصْلِ الفعلِ وزيادتِه، جَرَى مَجْرى عَامِلَين؛ كأنَّه قيلَ: قربُهم لِلكُفرِ زائدٌ على قُربِهم لِلإيمان.

ويجوزُ أنْ يكونَ تَعلُّقُ الجارَّيْنِ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ لِشَبَهِهِمَا بالظّرْفَين؛ أيْ: هُمْ للكُفرِ يومَ إذْ قَالُوا ما قَالُوا، أقْربُ منهُم للإيمانِ، فإنّهم كانوا قَبْلَ ذلكَ يتَظَاهرونَ بالإيمانِ، ومَا ظَهَرَتْ منهُم أمَارةٌ مؤْذِنةٌ بكُفْرِهم، فلَمَّا انْخَذَلُوا عن عَسكَرِ المسلمينَ، وقالُوا ما قَالُوا؛ تَبَاعدُوا بذلكَ عنِ الإيمانِ المظنُونِ بهم، واقْتَربُوا منَ الكُفْرِ.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هُمْ لِأهلِ الكُفرِ أقربُ نُصرَةً منهم لِأَهلِ الإيمانِ؛ لأنّ تَقليلَ سَوادِ المسلمينَ بالانخذالِ الّذي وقَعَ منهم يُعَدُّ تَقويةً للكافرين[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾:

بُعْدُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَقُرْبُهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ

جَاءَ تقديمُ الجارِّ والمَجْرُورِ ﴿لِلْكُفْرِ﴾ على الْخَبَرِ ﴿أَقْرَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ والقَصْرِ؛ أي: أنَّهُم أقربُ لِلْكُفْرِ دُونَ غَيْرِه من صفاتِ الخَيْرِ التي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/595 - 596.

أعلاهَا الْإيمانُ، وفي هذَا التَّقديمِ أيضًا: تعجيلُ ما يَسُوؤهُم بذِكرِ الكُفرِ أَوَّلًا.

وجاءَ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ مُتقدِّمًا على ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ لتعلّقه بـ ﴿أَقْرَبُ﴾، ولِإفادَتِهِ البُعدَ عنِ الإيمانِ، والقُربَ مِنَ الكُفرِ؛ حيثُ إنّ قولَه: ﴿أَقْرَبُ﴾ يقتضي فَاضلًا ومَفضُولًا، فلا يقعُ لَبْسٌ في تعلُّقِ مَجرورَين به؛ لأنّ السّامعَ يَرُدُّ كُلَّ مجرورٍ إلى بعضِ معنَى التَّفضيل.

وما يُشاهَدُ مِنْ حالِ المنافقينَ أقربُ دِلالَة على أنَّهم يُبطِنونَ الكُفرَ مِن دِلالةِ أقوالِهم: إنّا مُسلِمُون، واعتذارِهم بقولِهم: لو نَعلمُ قتالًا لاتّبعناكُمْ؛ أيْ: إنَّ عُذرَهُم ظاهرُ الكَذِبِ، وبيِّنٌ في كون المرادِ مِنْهُ تَفْشيلَ المُسْلِمين وتثبيطَهُمْ، والقُربُ: مجازٌ في ظُهورِ الكُفرِ عليهِم[1].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْكَشْفُ عَمَّا فِي ضَمَائِرِ الْمُنَافِقِينَ

فُصِلَ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شِبْهَ كمال الاتِّصالِ، المعروفَ بالِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ، وذلك لقَصْدِ بيانِ مَغْزَى الاقترابِ المذكورِ في قولِهِ قبلُ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ فهُمْ يُبْدُونَ مِنْ حالِهم أنّهم مُؤمِنون، ولذَا يَرِدُ السّؤالُ: كيفَ جُعِلوا إلى الكُفرِ أَقْربَ معَ أنَّ ظاهرَ حالِهم الإسلامُ؟ فجاءَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أَيْ: إنّ الّذي يُبْدونَه ليس مُوافقاً لِمَا في قُلوبِهم.

وفي هذه الجملةِ المستأنَفَةِ: تقريرٌ لِمضمونِ ما قَبلَهَا.

ويجوزُ أنْ يكون قولُه: ﴿يَقُولُونَ﴾ جملةً حاليَّةً مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَقْرَبُ﴾؛ أيْ: قَرُبُوا إلى الكُفرِ قائلينَ[2] بأفواهِهم ما لَيْسَ في قُلوبِهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/163.
(2) العكبري، التبيان: 1/157.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

شِدَّةُ كَذِبِ أَهْلِ النِّفَاقِ

يُسنِدُ القرآنُ الكريمُ القولَ تارةً للألسنِ، كما في قولِه تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11]، وتارةً أُخرَى يُسنِدُه لِلأفْواه؛ كَما في هذه الآية ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، واللِّسان جُزءٌ مِن الفَم، فإطلاقُ الأفْواهِ وإرادةُ الأَلْسُنِ؛ هو مجازٌ مُرسلٌ، علاقَتُهُ الكُلِّيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ الكُلُّ وأُرِيدَ الجُزءُ، ونُكْتَتُه: تصويرُ قولِ المنافقِينَ لشِدّةِ كَذِبهم فيهِ وأنَّهم لا يقولُونَه بألسنتهمْ فَقَط، وإنّما يَسْتجمِعونَه في جميعِ أفواهِهم، بيانًا مِنَ اللهِ تَعالى لحقيقةِ نفاقِهم القائم على الكَذبِ والبُهْتان، وكأنَّ كُلَّ جُزءٍ مِنْ أفواهِهم يتكلَّمُ بذاكَ الكَذبِ ولَيس اللِّسانُ وحدَهُ.

ويجوزُ أن يُجْعَلَ هذا المجازُ مرسلًا بعلاقةِ المحلّيَّة[1]؛ فمعنى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ يقولونَ بألسنَتِهم، والأفواهُ مكانٌ لِلْألسنَة.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الإيمانَ لم ينعقِدْ في قُلُوبِهم مُطْلَقًا؛ بلْ رَانَ على قلوبِهم ما كانوا يَكْذِبونَ، فخَلَتْ من حقيقةِ الإيمَانِ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

الْقَوْلُ الصَّادِرُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ مُنَافٍ لِلْمُسْتَقِرِّ فِي قُلُوبِهِمْ

جاءَ الاسمُ الموصولُ (ما) في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تعبيرًا عن قولِهم الكاذِب، وهو مفعولُ ﴿يَقُولُونَ﴾، واسمُ ﴿لَيْسَ﴾ المحذوفُ (هو) راجعٌ إلى (مَا) بمعنَى القولِ، وتقديرُ الكلامِ: يقولونَ بألسنتِهمُ الّذي ليس هو القولَ الكائنَ أو الموجُودَ في قلوبِهم، وكأنَّ في القلبِ قَولًا، وفي اللّسانِ قَولًا آخَرَ، وكلٌّ

(1) الأصل في تعريف المجاز: ما أُريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللّغة، وهو مأخوذ من: جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع، إذا تخطّاه، ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 1/84.

وإطلاق مصطلح المجاز المرسل، يعني: ما كانت العلاقةُ بين ما استُعمل فيه، وما وُضع له مُلابسةً غير التّشبيه، وذلك مثل لفظة (اليد) إذا استعملت في معنى (النِّعمة) لأنّ من شأنها أن تَصدُر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها، وقد سمّاه البلاغيون (مجازًا مُرسلًا) لإرساله عن التّقييد بعلاقة المشابهة، ينظر: عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح: 3/462.

منهما يُخالفُ الآخَرَ، وهذا هُوَ حقيقةُ النِّفاق؛ "فقدْ أَظهرُوا في تلكَ الواقعةِ أمرينِ اثنيْنِ، ليسَ في قلوبِهم شيءٌ منهُما؛ أحدُهما: عدمُ العِلمِ بالقتالِ، والآخرُ: الاتِّباعُ على تقديرِ العِلمِ به، وقدْ كَذَبوا فيهِمَا كَذِبًا بيّنًا، حيثُ كانُوا عالمينَ به، غيرَ ناوِينَ للاتِّباع؛ بَلْ كانُوا مُصرِّينَ على الانخذالِ، عازمينَ على الارْتِدادِ"[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾:

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِظَوَاهِرِ الْعِبَادِ وَبَوَاطِنِهِمْ

الواوُ في قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ اسْتِئْنَافيةٌ، ويجوزُ أَنْ تَكُونَ حاليَّةً، و﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ، بمعنى: الّذي، أو حرفٌ مَصْدريٌّ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلّ جرٍّ بحرفِ الجرِّ، والتّقديرُ: والحالُ أنَّ اللهَ أعلمُ بكِتْمانِهم، أو بِكتمانِ قلُوبِهم.

وفي قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ وجهانِ:

أحدُهُمَا: أنّه أفْعَلُ تَفضيلٍ، وليستِ المفاضلةُ بينَ أصلِ عِلمِ اللهِ تعالَى وعلمِ البَشرِ، وإنَّما هي مِنْ بابِ عِلمِه تعالَى بدَقائقَ وتفصيلاتٍ حاضرةٍ وغيْبيَّة، لا يَعلمُها إلّا اللهُ تعالَى.

أو أنّه أفْعَلُ تَفضيلٍ لَم يجرِ على بابِه؛ إذْ لا مقارنَةَ بين علمِ اللهِ تعالى وعلْمِ غيرِه، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، فليس معناه: أنَّ الظُّلْمَ قريبٌ من التَّقوى، والعدلَ أقربُ مِنْهُ.

الآخَرُ: أنّه ليسَ للتَّفضيلِ، وإنَّما هو وصفٌ جاءَ على وزنِ أفعل، وهو بِمعنَى عَليمٍ أو عالمٍ[2].

وقَدْ أَظهرَتْ فاصلةُ الآيةِ الكَريمةِ زيادَةَ تحقيقٍ لكفرِ المنافقين؛ ببيانِ اشْتغالِ قلوبِهم بما يُخالفُ أَقوالَهم، مِنْ فُنونِ الشَّرِّ والفَساد، إثرَ بَيانِ خُلوِّها عمَّا يُوافقُها، واستعمالُ صِيغَةِ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لِمَا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/478، وصافي، الجدول: 4/367 - 368.

أنَّ بعضَ ما يَكتُمونَهُ مِنْ أَحكامِ النِّفاقِ وذَمِّ المؤمنينَ وتخطِئةِ آرائهم والشَّماتَةِ بهم، وغيرِ ذلك؛ يَعلَمُه المؤمِنونَ على وَجهِ الإجْمالِ، وأنّ تَفاصيلَ ذلكَ وكيفيَّاتِهِ مُختَصّةٌ بالعِلمِ الإلهَيِّ[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

المُبَالَغَةُ فِي تَهْدِيدِ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ تَابِعَةٌ لِشِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ

خُتمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾، وجاء في سورة المائدة قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: 61]، وسرُّ التَّغايُرِ بينهما: أنَّ المتحدَّثَ عنهم في آية آل عمران كانوا أقلَّ نفاقًا وكفرًا، كما دلَّ عليه قولُه سبحانه قبل: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾، بخلاف المتحدَّث عنهم في آية المائدة؛ فقد كانوا غارقين في الكفر والنِّفاقِ، كما أرشد إلى ذلك قوله ﷻ قبلُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾؛ فناسبَ أن تختصَّ آيةُ المائدة بزيادة ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ دون آية آل عمران[2].

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

(أصابَكُمْ) و(مسَّكُمْ):

(المَسُّ) أَقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصَابةِ، وكأنّهُ أقَلُّ درجاتِها[3]، والّذي وقَعَ في غَزْوةِ أُحُدٍ كان ثقيلًا على المسلمينَ؛ قَتْلٌ وجِراحٌ، ثمّ هَزيمةٌ بعدَ نَصْرٍ، وهو أشدُّ وَطْأً على النُّفوسِ، وأَوْقَعُ إيذاءً بها.

فلا يُناسِبُ والحالُ هذه إلّا اسْتخدامُ الإصابَةِ، وليسَ مُجرَّدَ المَسِّ، وخاصّةً أنَّ البيانَ الإلَهيَّ قد أعلَمَهُم أنَّ هذا الأمرَ الشَّديدَ الّذي أصابَهمْ يَنطوِي على حِكمتَيْنِ؛ الأُوْلَى: أنّه قَدَرُ اللّهِ الّذي لا مَفَرّ مِنهُ، والثّانيةُ: أنَّه تَمييزٌ وتَمحِيص، قال الغطمَّش الضّبّي، وهو من بني شقرةَ بنِ كعبِ بنِ ثعلبةَ بنِ ضبّة:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/478، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.
(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.
(3) ابن المنيّر، الكشاف بحاشية الإنصاف: 1/459، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (مَسَسَ).

أَقُولُ، وَقَدْ فَاضَتْ بِعَيْنِيَ عَبْرَةٌ *** أَرَى الدَّهْرَ يَبْقَى، وَالْأَخِلَّاءَ تَذْهَبُ

أَخِلَّايَ لَوْ غَيْرُ الْحِمَامِ أَصَابَكُمْ *** عَتَبْتُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدَّهْرِ مَعْتَبُ[1]

الإذْن والقَضاء:

أَذِن بالشّيء، يأذَن إذْنًا، عَلِمَ به؛ كما قالَ تَعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾؛ أيْ: كونُواْ على عِلم. وقَضَى يَقضِي قَضاءً؛ أيْ: صَنَعه صُنعاً، وقدّرهُ تقديراً؛ ومنه: القضاءُ والقَدَرُ[2]. والقَضاءُ: عِلمُ اللّهِ الأَزَليُّ بما هو كائنٌ وواقعٌ، فالقضاءُ؛ وهو العِلمُ سابِقٌ للقدَر، الّذي هو التَّقديرُ المطابِقُ لِلعِلم.

وما وَرَدَ في قولِه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهو كائنٌ بقَضائِه وعِلمِه، وتَخْليتِه الكفّارَ؛ سُمِّيَ ذلكَ إذْنًا لِكَونِه مِنْ لَوازمِه، فاسْتعارَ الإذْنَ لِتخليتِه الكفَّارَ، وأنَّه لم يمنعهُمْ لِيبتليَهم[3].

(يَعلَمُ) و(يَتَبيَّنُ):

عَلِمَ الشَّيءَ بالكَسْر، يَعْلَمُهُ عِلْماً: عَرَفَهُ، بَانَ يَبِينُ بَيانًا وبَيْنُونَةً: اتّضَحَ، وتَبيَّنَ الشَّيْءُ: ظَهَرَ، والتَّبْيينُ: الإيْضاحُ والوُضوحُ[4]. والعِلمُ: اعْتقادُ الشَّيءِ على ما هو بهِ على سَبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بَعْدَ لَبْسٍ أوْ لا، والتّبيينُ: علمٌ يَقعُ بالشَّيءِ بَعْدَ لَبْسٍ فقطْ؛ ولهذا لا يُقالُ: تبيَّنْتُ أنَّ السَّماءَ فَوقي، كما تقولُ: علمتُها فَوقي؛ لِذا وردَ قولُه تَعالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، فعِلمُ اللّهِ لايَسبِقُهُ لَبسٌ، فَلا يُقالُ للّهِ: مُتَبيِّنٌ لذلك[5].

الدَّفْع والرَّدّ والدَّرْء:

دَفَعَهُ، وإليه، وعنه الأَذَى، كمَنَعَ، دَفْعاً ومَدْفَعاً، و(دافَعَ) عنه و(دَفَعَ) بِمعْنَى: ردَّهُ عن وَجْهِه يَرُدُّه (ردًّا) و(ردّةً) بالكسر، و(مَرْدُودًا) و(مَرَدًّا) و(رِدِّيدَى): صَرفَهُ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 11]. والدّرْءُ: الدّفْعُ، وبابُهُ: قَطَعَ، و(دَرَأَ) طَلَعَ مُفاجَأةً، وبابُهُ: خَضَع[6]. والدَّفعُ قدْ يكونُ إلى جِهةِ القُدّامِ والخَلْفِ، والرّدُّ لا يَكونُ إلّا إلى جهةِ الخَلْفِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عتب).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (أَذِنَ) و: (قَضَى).
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/477، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (عَلِمَ) و: (بَيَنَ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 317.
(6) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَفَعَ) و: (رَدَدَ) و: (دَرَأَ).

ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76][1]، وهذا المَعنَى للدَّفعِ هوَ الَّذي يُناسِبُ دَفعَ الأعدَاءِ مِنْ جِهَةِ القُدَّامِ والخَلفِ؛ بَلْ وفي كُلِّ الجِهاتِ.

الكِتْمان والإخْفاء والسِّرّ:

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: كَتَمَهُ، كَتْمًا، وكِتْمانًا، مِنْ بابِ نَصَرَ، و(اكْتَتَمَهُ)، وسِرٌّ (كاتِمٌ)؛ أيْ: (مَكتومٌ)، و(اسْتَكْتَمَهُ) بِسِرِّه: سألَهُ أنْ يكتُمَهُ. خَفَاهُ: مِنْ بابِ رَمَى، كَتَمهُ وأَظهرَهُ، وهو مِنَ الأضْدادِ، و(أخفاهُ) سَتَرهُ، وكَتَمَهُ. والسِّرُّ: ما يُكْتَمُ. و(الكِتْمانُ): هو السُّكوتُ عنِ المعنَى؛ وقولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتونَ عن ذِكرِه، والإخْفاءُ يكونُ في ذلكَ وفي غَيرِه، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: أَخْفيتُ الدِّرهمَ في الثَّوْبِ، ولا تقولُ كَتَمتُ ذلكَ، وتقولُ: كَتَمتُ المعنَى وأَخفَيتُهُ، فالإخفاءُ أعمُّ مِنَ الكِتمانِ. والمكْتومُ يَختصُّ بالمعَاني كالأَسرارِ والأَخبارِ؛ لأنّ الكِتمانَ لا يُستعمَلُ إلّا فيهِمَا، والمسْتورُ يَختصُّ بالجُثَثِ والأَعْيانِ؛ لأنّ الأصلَ في السِّرّ تَغطيةُ الشَّيءِ بِغِطاء، ومِنْ خِلالِ ما تَقدَّمَ مِنْ بَيانِ مَعَاني تلكَ المُفرَداتِ؛ نجدُ اشْتراكاً واضِحًا بينَها، و(الكَتْمُ) يَدخُلُ صُلبَها جميعَهَا دُخولًا أَوّليًّا.

وما ذَكرَهُ أَهلُ الفُروقِ مِنْ أنَّ (الكَتْمَ) يَختصُّ بالمعَاني، يُناسِبُ ما يَكتُمُهُ المنافِقونَ في نُفوسِهِمْ مِنْ حَقيقةِ كُفرِهِم، والَّذي لا يَعلمُهُ إلّا اللهُ؛ ولذلكَ جاءَ بيانُ اللهِ جَليًّا بقَولِ الحقِّ تَباركَ وتَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 53، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 11.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»